البكـــاء علـى صدر الحبيب

رواية للكاتب الفلسطيني رشاد ابي شاور

كان من المقدر ان تكتب الروايـــة الفلسطينية الكبرى على يد الشهيد غسان كنفاني ، الا ان ذاك الانفجار في ظهيرة احد أيام تموز أفقدنا « احلى الفلسطينيين واجمل العرب » وحذف من رصيـــد الرواية الفلسطينية احد اهم أعمدتها .

حين نقول « الرواية الفلسطينية » فلا نعني الا الرواية التـي كتبت عن القضية ـ الاستثناء في تاريـــخ البشرية .. ولعل ممـا يستوقفنا ان تكون الرواية فلسطينية بهذا المعنى ، وكاتبها فلسطيني، ورؤياها جديدة ، وتملك من الجرأة والصراحة القدر المطلوب للحيـاة المعاصرة . تلك هي رواية « البكاء على صدر الحبيب » للروائـــي الفلسطيني رشاد أبي شاور ، وهي قصة الرجل الفلسطيني الـــذي بقي حيا بعد ان قضى جميع رفاقه في ميدان الخلاص ، فاحس انـه الوحيد الذي مات .. وانهم جميعهم الاحياء .. ولكنه غالب هـــذا الاحساس بالبديل الموضوعي لا غير .

اشخاص الرواية عاديون ، من لحم ودم ومشاعر انســانية : يجرحون .. يضحون ويلعنون ، يمارس واحدهم حياته كاي مواطـن يحب ويكره ، يوافق ويرفض ، له ايجابيات وفيه سلبيات ، لفتهم بسيطة وعادية بعيدة عن الفذلكة والعقم البلاغي والافتعال المقرف ، لذا فنحن نرى في الرواية صورة حقيقية وواضحة للفدائيالفلسطيني ـ الذي لم يكن كما كان يطرح باستمرار : معجزة واسطورة من ناحية، وقاتلا مخربا دون قيم .. ودون اخلاق من جهة اخرى ـ انها صـورة الفرد الطبيعي ..

يحقق رشاد عملية رصد داخلية ، غاية في الجرأة ، لحركـــة المقاومة الفلسطينية ، واذا علمنا انه واحد من افرادها فلن نستغرب تلك الدقة المتناهية في رصد الجزئيات وتوظيفها في خط عمـــله الروائي .. انه يعرف نفسه (زياد) التي اكتشفها جيدا في ايـلول المذبحة ، لذا فهو يكشف بقسوة : الوجه الآخر للفدائي .. الوجـه الحقيقي ، مبعدا عنه الماكياج الاعلامي بمختلف أشكاله مبتعدا عـــن التـــورط في شيئين : الاول ـ التمجيد الاجـــوف غير المقنع ، والثاني ـ الشماتة التي بلغت ذات مرة عند كثير من الادباء درجـة تعذيب الذات . وبذلك يكون الكاتب قد هدف في عمله الى التدليـل على السبب ـ الخلل الذي وضع العمل الفدائي في حالة أدت الـى اخراجه من ساحة الاردن .. بطريقة ممعنة في الوحشية .

لا يلجأ رشاد الى استخدام تقنية روائية محددة لتقديم عمله ، كما انه لا يتوقف عند مجرد تسجيل حكاية ذات اجزاء كثيرة عن داخل المقاومة الفلسطينية بطريقة وثائقية ..انه يمزج بضعة من الاساليب راميا قبل كل شيء الى رصد ما حدث ليحرضنا على تجاوز الخطأ وبناء مستقبل أفضل ، ومن هنا ندرك سبب عدم التركيز على لقطات التداعي والحوار ، ووجدنا الحوار ينتشر في مختلف الصفحات منميا جدية وصدق حالة ابطال الرواية وعاديتهم وبساطتهم :

لم أتاخر ، ها .. كيف أنت الآن ، لا بأس ، الطبيب جـــاء ، انه ينام هنا .. ويأكل هنا ايضا .. دكتور طيب .. كيف الحـــال الآن ، لا بأس ، ـ بروفة يا شباب.. ما بالك قد سرحت؟ ـ سأبسطك، الله يبسطك يا أختي ، أختك يا (ء...) .

الرواية تدين كل أشكال الفهم الخاطىء الذي ارتكبته جميـــع الاطراف « المقاومة ـ السلطة العميلة الخ ... » كما انها تديـــن الممارسة المضللة التـي خاضت في حمياها تلك الاطراف ... وتديـن بالتالي كل ردود الفعل التي من شانها تجسيد وتجسيم وغرس الاخطاء بشكل مدمر .. الرواية تدين وتعري بمنطق النقد الذي يشير ويحدد البديل لا بروح التعذيب والاساءة الى النفس ـ كما شاء بعض مـــن كتب عن الرواية مستخدما اشارات من فنتازيا النقد ولعبة الادعـــاء الاجوف ـ وأشير هنا الى ما كتبه ربعي المدهون في « فلسطينالثورة » وفريد الخطيب في « الصياد » ـ فمثل تلك الاقوال تحتاج الى عمليـة نقد مقارن وهذا ما لم يفعله واحد منهما .

تعرض رواية « البكاء على صدر الحبيب » نماذج واقعية مـــن حياة حركة المقاومة الفلسطينية في ثلاث فترات محـــددة ، الاولى : تبدأ بخروج الفدائي من عمان جريحا بفعل السلاح العربي ، والثانية : صمود الثورة الفلسطينية امام محاولات تصفيتها في أيار ـ بيروت ، والثالثة : الفترة الزمنية ما بينهما . فنرى « غالي » الشاب المحمس الذي سقط في يد اليأس فترة حتى أصيب بالاحباط الذي دفعـــه بعيدا باتجاه العالم الغريب ليلتقي فوق الباخرة اليونانية بالزنجـي « برونو » الذي يصبح صديقا له ، ولكنه يفاجأ حين لا يسمح لـــه بدخول البلاد : لماذا ؟ الجواب : ان الامر سيكون في مصلحـة غـالي خيرا ..

« قلت ـ أي غالي ـ : لماذا ؟ قال « برونو » بأميركيته العجيبة : القانون هكذا ، غير مسموح للبحارة بدخول البلاد اذا كانوا يأتـون للمرة الاولى . قلت : اللعنة على هذه البلاد .. اللعنة على القـانون القديم والحديث والمستقبل .. تفو على ناطحات السحاب . اقترب مني البحار الزنجي برونو واغرق في الضحك ..قلت : لـماذا لم تنزل ؟ بصق وشتم : اني اكره هذه البلاد الحقيرة .. لقد هربت الى البحر لانني اكرهها . من الذي يستطيع ان يحيا فـي اميركا ؟ من ؟.. » . هذا هو وضع برونو : لن يعود لانه يكره اميركا . اما هو فانه لا يكـره بلاده .. ولكنه يئس تماما . ثم يأتيه صوت برونو مرة ثانية : « اصغ الي أيها الصديق : عد الى وطنك وأنا كذلك سأعود .. فالخيول يجب أن تموت في ميادينها » .

يعود غالي الى بيروت ليحذر رفاقه : « احذروا من القناصة .. اذا أطلق أحدهم الرصاص عليكم من بناية حددوا المكان ولا تطلقـــوا

النار .. انهم يريدون جرنا لقتل الاهالي » . ثم يموت غالي .. مع هناء تلك الحبيبة التي ابعدته الحياة عنها ثم اجتمعا في لحظة الموت .. « كوموها مع القتلى في احد البيوت التي جعلت مركزا للاسعاف ... ولكنه تردد في اطلاق النار عليهم ... غالي راح ... هكذا تسير الامور دائما » .

اما « زياد » فانه يلتقي بـ « فجر » الانسانة التي احبها ولم يكن له في فترة معينة ان يصارحها بحبه لان احد القادة كان ... تتغير الاحوال ونلتقي من جديد بزياد وينطلق الحب من مكمنه متوهجا وقويا وتكون المصارحة المفجعة ... « انا لا استحقك يا زياد ... ـ انا متالم الآن ، لا اريد ان اكذب عليك .. انا مقهور الآن .. ليس لانك فقدت عذريتك مع ذلك القذر (يقصد احد القادة) ... ثم : تلاقت عيوننا.. ونحن نسير وفرح الاطفال يطهرنا ويرفرف فوق راسينا » .

ـ وابو خليل ـ كنا نناديه « ابو الخل » ، احيانا كان سمح الوجه ، عذب اللسان ، يقاتل وهو يبتسم ، لم يحتقر معتقدات احد.. ولكنه كان يقول يجب منع كتب ابي زيد الهلالي والكتب التافهة التي ترسل الى القواعد ... اعتقلتموه .. اهنتموه .. ثم طردتموه الى الشارع فصار سكيرا حزينا ... » « المهم انتحر صبيحة هذا اليوم وسوف تخرج جنازته مساء .. الجنازة متواضعة .. هذه هي المرة الاولى التي يبث فيها اغاني الشيخ امام جنازة : جيفارا مات .. يا انتيكات .. خلاص .. خلاص .. مالكوش خلاص ـ فير بالبنادق والرصاص » . وابو الخل « ليس شهيدا .. هكذا قالوا » « هل تصدق انهم رفضوا اعطاءنا سيارة الاسعاف لنقله ـ يقصد القيادة ـ ولكنني ذهبت الى المعسكر واخبرت اصدقاءه من المقاتلين فحضروا ومعهم سياراتهم العسكرية .. واجبروا السائق على الحضور » .

نهاد : الفتاة المتحررة التي تاخذ دورها كاملا كالرجل حتى انها تتفوق عليه . « وحين انتهت الدورة التدريبية كنت الثاني على كل المعسكر » (نهاد ص ٥٩) . انها صورة المستقبل ووجه الجيل الجديد ذي العقلية المتفتحة المعاصرة ..

الطبيب ـ مسؤول الفرقة الفنية خالد الذي رفض اخراج ما لم يقتنع به فمزق النص التافه .

الام ـ فاطمة وامها ـ الومسات .. مارلون براندو ـ حسام منظف المكتب ـ الشاعر بطل المسرحية ـ ابو سامر القائد الانتهازي الجبان ... كل هذه الشخصيات منتزعة من قلب الواقع العادي الذي نحياه يوميا ، ووجودها في الرواية بمثابة جسور حقيقية غير مفتعلة لتنمية الحدث المتنامي .

والحس الطبقي في « البكاء على صدر الحبيب » واضح جدا دون اية حاجة الى التفسير .. فنظرة سريعة الى الشخصيات لحظة الصراع الذي يقوم بينها كجزء من احداث الرواية ملتصق ببقية الاجزاء يؤكد لنا ان ذلك الحس موجود بشكل وعي في نفس الكاتب وعلى سبيل المثال : القائد ابو سامر ـ نهاد ـ المسؤول ـ خالد ...

وبعد : فان رواية رشاد هذه تعتبر تطورا في مسيرة هذا الروائي الطليعي .. وعلامة واضحة في خط سير الرواية الفلسطينية.

حلب

عادل اديب آغا

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحواء	د . زكي مبارك
من ادبنا المعاصر	« «	التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خوري	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وابقى الكلمة	صلاح عبدالصبور	بابا همنغواي	أ . ا . هوتشنر